اللقاء المثير

اليوم منذ الصباح الباكر ، وأنا أحس أننى سابحة فى بحر من السعادة ، تقذفني موجة رقيقة لتتلقفني أخرى ، تهز وجداني و تملأ قلبي بهجة لا حدود لها ، أداعب بعواطفي تلك الموجات الباردة ، لترطب حرارة شوقي إليه بعد طول الفراق .

يتراقص جسدي بهذه الموجات سابحا فى حقيقة أجمل من الخيال ، فها أنا ذا أغير خطاي في حركات إيقاعية ، تموج ذراعاي سابحة في أثير متراقص تشاركني فرحتي ، لتهبط كعصفور لتدير شيئا ما ، فإذا بهذا الساكن مكانه يخرج ما في قلبه من نغمات ، يا لها من أغنية شاركني بها ذلك الجماد سعادتي ، لم يكن لذلك " المسجل " فضل الأسبقية فى الغناء لانبهاره بالجو المحيط به ليقدم هو الأخر شيئا ، لقد أخرج ما أرغمني أن أردده معه ، و تابعني بصوته حتى " صوان ملابسي " لأختار إحدى الثياب.

تراقصت جميع فساتيني إلا واحداً ، كان كل ما فيه مبتسما ، شابا ، لكنه خجول محتشم ، يحمل فى نسيجه خليطا من الفرح و الوقار ، لقد راعني بوقاره ، لابد أن يكون هو ، و مددت يدى لأتناوله ، وخرج من بين الملابس منزلقا ، سريعا ، فرحا لوقوع اختياري عليه

ارتديته بعد وقفه تأمل فى المرآة ، و بسرعة مررت " بالمشط " على شعري ، و جمعته داخل التوكة الحمراء التي أهداها لي منذ سنوات مضت ، وأرتديت حذائي اللامع ، و حقيبتي التي تحمل لون الحذاء ، و تسمرت في مكاني لحظات ، ثم اندفعت خارجة لهذا اللقاء .

ذهبت إليه فى الموعد و المكان الذي حدده ..

لقد تحققت جميع أحلامه ، سيارة فارعة و فيلا فاخرة ، و بستاني يرعى الحديقة الواسعة ، ترددت قبل أن أدق الجرس ، و أخيرا فعلت ، فتحت لي خادمة نوبية أخبرتني أن سيدها ينتظرني داخل حجرة المكتب .

سرت بخطوات ثقيلة كأنها دهر " كيف سيكون اللقاء " ؟ ، فتح باب المكتب وجدته أمامي ، تسمّرت في مكاني ، ومددت يدي للسلام ، واهتزت الشفاة لتتمتم بعبارات مفككة الأوصال ، لا يفهم من ألفاظها بقدر ما يفهم من نبراتها ، وزاغت العيون لترى ماض مجسد سحيق ، و سرى في عروقنا دماء حارة تحمل مع كل نبضه من نبضاتها ذكرى سعيدة ، و تتوالى النبضات و تسرع أكثر فأكثر ، و توقف " القلب " لحظة لتظهر نبضة فراق طالت عليها الأيام ، و قد تزامنت نبضاتنا ، و خرجت الذكريات ، يا لها من ذكريات ، تناقشنا ، تعاتبنا ، و ارتفعت أصواتنا ، و وقف كل منا ليثبت

للأخر أنه على حق ، ثابت الوجدان ، صلب كالصخر مجافيا للحقيقة ، إلى متى العناد و التحدى و الصمود ؟ ذاب الجمود ، و تفتت الصخر لتظهر الحقيقة واضحة .

تضاربت الأحاسيس ، و توالت الهواجس ، و ازدحمت الرأس بكثير من الأفكار .. أفكار خاصة بالقلب ، و أخرى خاصة بالعقل أين نهرب ؟ و لماذا نهرب ؟ بعدما تسرب الوقت من بين أيدينا ، و مضى قطار العمر ، لابد أن يعرف حقيقة هروبي !! .

تراجع إلى الوراء فتعثرت خطاه ، فمددت يدي لأنتشله من السقوط وجد فيها منقذا و تمسك بها و احتضنها كطفل وجد لعبته بعد طول الضياع .

و خرجت الكلمات من فمه ، حاملة ما يجول بداخله من فرح و شوق ، و ألم و عتاب و حنين .

و اهتزت العبرات ، وتحشرجت الحروف لتخرج بصعوبة أين كنتِ ؟ لماذا هربتِ ؟ لماذا لم تنتظري ؟ لقد تسرعتِ يا حبيبتي .

و جذبني إلى داخل الغرفة ، انظرى إلى الحوائط و الجدران ، إنها ممتلئة بصورك ، و مد يده إلى درج المكتب الكبير ، وأخرج لفافات و أشياء وضعها فوق المكتب ، و هو يقول بصوت حزين :

" هذا مفتاح عليه اسمك ، السيارة قد استبدلتها بأخرى ، لونها أحمر كما تحبين ، و هذه الوردة ما زالت في كتاب " الإلياذة " تحمل معها ذكريات السنين ، و يفوح منها عطر الحنين ، ذبلت و لكن ما زالت رائحتها نفاذة ، و زجاجة عطر " السكرية " ، كل ما تحبين أحتفظ به كما ترين ، حتى " البروش الماسى " و بجواره صورتك الجميلة لماذا ؟ لماذا ؟ .

ماذا أقول ... و قد شاءت الأقدار أن ألتقي به من جديد ، لم أكن أتوقع هذا اللقاء بعد مضي هذه السنين ، و لكنها الأن قد أصبحت باليوم القريب .

كل شئ كما هو كأن افتراقنا كان بالأمس فقط و ليس بالسنوات البعيدة ، و أردت أن أبادله الحديث ، و لكنه لم يترك لي فرصة للاستغراق فى الماضى البعيد ، فهو يحاول جاهدا أن يجسده حاضرا ، فجذبني من يدي ، و تحرك في أرجاء الحجرة مشيرا بأصبعه ، نياشين ، شهادات ، كؤوس ، هدايا ، ألم ، عذاب ، تضحيات ، كل هذا لم يكن ينطق قبل اليوم .

وقف للحظات شاردا ، مثل إنسان آلي ، و فجأة استجمع كل قواه ليقول بصوت كأنه خارج من الأعماق " كل هؤلاء أنت " ، و علا الصوت بقوة " أنت وحدك و لا أحد غيرك " .

بعد رحيلك يا حبيبتي لم أجد بسمة " النور" و لا كلمة " الأمل " ، و لا الصدر الحنون الذي يحتضنني و أبوح له بمكنون نفسي ، لم أجد أحداً غير هؤلاء أبث لهم شكواي ، و أفنيت لهم عمري ، أما الأن فلو كان هناك اختيار ، فسيكون أنت ، و لا شيء فى الدنيا غيرك ينعش قلبي الذابل وهزني بعنف و هو يقول :

" لماذا هربتِ ؟ لماذا تخليتِ عنّي ؟ لماذا تركتني وحيداً ؟ " .

أخذت نفساً عميقاً واستجمعت قواي و قلت : " هربت لأنني لم أجد الإنسان ، الإنسانية أقوى من حبي ، عندما قدمت لي أمك على أنها " الدادة " التي قامت بتربيتك ، و أختك على أنها عاملة عندكم ، أنكرت وجودهما – بسبب الفقر - لأنهما لا يليق بمركز " سعادة البيه " الدكتور الطيار العظيم ، لقد أصبحت عظيما بفضل " أمك " المسكينة خاصة بعد وفاة والدك ، حرمت نفسها و حرمت أختك حتى من حقها فى التعليم ، و زوجتها مبكرا حتى لا يشاركك أحد فى تحقيق أحلامك و طموحاتك ، و تجعلك ناجحا وعظيما .

و بعد ذلك تركتها ، و هجرتها ، و تخليت عنها ، و قلت عليها " الدادة " ، حتى لا أتركك ، أعطيتها من المال الكثير و لكن بخلت عليها بمشاعرك و بنوّتك

الأن يجب أن تعرف الحقيقة .... بعد سفرك إلى الخارج لتكملة دراستك ، ذهبت إليها مصادفة ، فوجدتها تبكى بحرقة بسبب تجاهلها و بعدك عنها ، و عندما سألتها عن سر عذابها قالت : " أنها أمك " مادت الأرض تحت قدماي ، و دارت بي الدنيا ، و قررت ألا أراك ثانيا .

ماتت " أمك " المسكينة بين يدي و آخر كلماتها كان اسمك ، و رحلت و تركتك دون أن أخبرك بالسبب لإنى حتقرتك ، لأنك لست إنسانا .

عشت على ذكراك ، و لم أنساك لحظة واحدة ، و دفنت مشاعري في أعماقي ... لقد أحببتك بجنون ، و تمنيتك شريكا لحياتي ، و لكن صورتها وقفت حائلا بيني و بينك فابتعدت عنك لأنه قدري ... من باع أمه.. يبيع الدنيا كلها و يخسر الآخرة ..

و انصرفت بلا وداع ....